الرد على

من عظم الفلاسفة الملاحدة

ابن سينا .. الرازي
الفارابي... وأشياعهم

بقلم

المهندس/ سمير المالكي

بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه

كنت قد بعثت ببعض صفحات هذا الكتاب إلى الأخ الدكتور وليد بن أحمد الفتيحي عبر الفاكس بعد كتابته لمقاله الرابع ليرجع عما كتب وأرسلت نسخة أيضاً إلى صحيفة عكاظ، لكني لم أتلق أي رد أو جواب، بل أصر الدكتور -هداه الله- على إتمام مقالاته السبعة، وأصرت الصحيفة على نشرها، وتجاهل ما بعثته من أوراق ، فسطرت هذا الكتاب لعل الله ينفع به قارئه.

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. أما بعد، فإن من المصائب التي منيت بها هذه الأمة جهلها بكثير من مسائل الدين ومهمات العقيدة، وتساهل كثير من أبنائها في أصل عظيم من أصول الإيمان وهو: الولاء و البراء.

فصرت ترى من يمجد الكافر النصراني، عدو الإسلام والمسلمين، لأنه عالم في الذرة أو في الفلك أو نابغة في الطب والعلوم، بل قد يمجد ويعظم اليهودي والنصراني و الملحد لشهرته في الفسق كالغناء والرقص والموسيقى و الشعر الماجن أو لحذقه في اللهو واللعب ونحو ذلك فتراه يرفع على الرؤوس (الرؤوس المسلمة الساجدة لله تعالى) وهذا من أعظم البلاء والمصائب التي وقع فيها كثير من أبناء الإسلام.

ومما يلاحظ أيضاً تمجيد أولئك المنتسبين للعروبة و الإسلام من الزنادقة والملاحدة وتفخيمهم وتعظيمهم وإظهار مآثرهم ومنجزاتهم وتقديمهم لأبناء الإسلام على أنهم قادة في الفكر أو الشعر أو العلم والنوح عليهم بعد مماتهم كما صنعوا مع الهالك الزنديق نزار قباني الذي أعلن كفره واستهزاءه ب الله وبالدين واليوم الآخر.

ومن ذلك تمجيد الزنادقة السابقين المبرزين في بعض أنواع العلوم والمعارف كالفلسفة والطب و الرياضيات ونحوها.

وقد اطلعت على ما كتبه الأخ الدكتور وليد الفتيحي في صحيفة عكاظ العدد 11740 يوم الثلاثاء 1419/6/23 تحت عنوان: العلم والإيمان وهي سلسلة من حلقات ذكر فيها

الكاتب شمول هذا الدين العظيم لكافة العلوم النافعة في الدين والدنيا وأن هذا مما امتاز به عن سائر الأديان المحرفة.

وحتى يبرهن الكاتب على امتياز الإسلام عن غيره في مجال الاهتمام بالعلوم التجريبية الدنيوية إضافة إلى علوم الدين والشريعة سرد أسماء علماء مشهورين وأشاد بهم كابن سينا والرازي والفارابي وثابت بن قرة وأضرابهم فساءني مثل هذا التصرف إذ إن هؤلاء الفلاسفة المذكورين قد اشتهروا بالإلحاد والزندقة وكتبهم ومصنفاتهم تدل على ذلك، وقد تكلم فيهم علماء الإسلام من قديم وبينوا كفرهم وفساد نحلتهم وخبث مذهبهم كما سيأتي تفصيله في هذا الكتاب.

ولما كان أمر هؤلاء الزنادقة المنتسبين إلى الإسلام مما يخفى على كثير من المسلمين خاصة المثقفين و المتخصصين في العلوم الدنيوية التجريبية كالطب و الهندسة والطبيعة ونحوها.

ولما كان مثل هذا التعظيم والتفخيم لأمثال أولئك الملاحدة فيه مخالفة صريحة لحكم الله تعالى ولأصل عظيم من أصول الدين وهو البراءة من الكافرين و المنافقين كما نص عليه الكتاب الحكيم في قوله تعالى: {لا تجد قوماً يؤمنون ب الله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم} [المجادلة/22].

وقوله: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا ب الله وحده} [الممتحنة/4].

من أجل ذلك سطرت هذه الورقات نصحاً لله ولدينه ولكتابه ولعامة المسلمين.

وابتدأتها بذكر ترجمة مختصرة لبعض مشاهير الفلاسفة الذين أشاد بهم الدكتور الفتيحي في مقالاته فإلى حقائق تميط الأذى عن الطريق.

1- ابن سينا (ت428) هـ

هو أبو علي الحسين بن عبد الله البلخي ثم البخاري، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، المتوفى سنة 428هـ، وكان يلقب بالشيخ الرئيس، وكان من الإسماعيلية، وهي فرقة باطنية، من غلاة فرق الشيعة، ومن أخبثها، فاجتمع فيه ثلاث بلايا هذه والفلسفة والمنطق.

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء [535/17]: له كتاب (الشفاء) وغيره وأشياء لا تحتمل وقد كفّره الغزالي في كتاب (المنقذ من الضلال) وكفّر الفارابي. ا.هـ

وذكره الذهبي في الميزان [539/1] وقال: (فلسفي النحلة ضال) ا.هـ

ونقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان [291/2] قول الذهبي في ابن سينا: (فلسفي النحلة ضال) وزاد (لا رضي الله عنه).

ثم ساق قول ابن الحموي الشافعي: (وقد اتفق العلماء على أن ابن سينا كان يقول بقدم العالم ونفي المعاد الجسماني ولا ينكر المعاد النفساني ونقل عنه أنه قال: إن الله لا يعلم الجزئيات بعلم جزئي بل بعلم كلي فقطع علماء زمانه ومن بعدهم من الأئمة ممن يعتبر قولهم أصولاً وفروعاً بكفره وبكفر أبي نصر الفارابي من أجل اعتقاد هذه المسائل وأنها خلاف اعتقاد المسلمين) ا.هـ

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية [43/12]: (قد حصر الغزالي كلامه في "مقاصد الفلاسفة" ثم رد عليه في "تهافت الفلاسفة" في عشرين مجلساً له، كفره في ثلاث منها، هي: قوله بقدم العالم وعدم المعاد الجسماني وأن الله لا يعلم الجزئيات وبدّعه في البواقي ويقال أنه تاب عند الموت والله أعلم) ا.هـ

ونقل ابن العماد في شذرات الذهب [237/3] قول اليافعي في ابن سينا: (طالعت كتاب "الشفا" وما أجدره بقلب الفاء قافاً، لاشتماله على فلسفة لا ينشرح لها قلب متدين و الله أعلم بخاتمته وصحة توبته).

ونقل قول ابن الصلاح فيه: (لم يكن من علماء الإسلام بل كان شيطاناً من شياطين الإنس)ا.هـ.

قلت: وأشهر من رد على ابن سينا وبين ضلالاته وكفره وهتك ستره شيخ الإسلام ابن تيمية في مؤلفاته ومنها نقد المنطق ودرء تعارض العقل والنقل وغيرها ومما قاله فيه: (وابن سينا تكلم في أشياء من الإلهيات والنبوات والمعاد والشرائع لم يتكلم فيها سلفه ولا وصلت إليها عقولهم ولا بلغتها علومهم فإنه استفادها من المسلمين وإن كان إنما أخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين كالإسماعيلية وكان هو وأهل بيته وأتباعهم معروفين عند المسلمين بالإلحاد وأحسن ما يظهرون دين الرفض وهم في الباطن يبطنون الكفر المحض وقد صنف المسلمون في كشف أسرارهم وهتك أستارهم كتباً كبارًا وصغاراً وجاهدوه باللسان واليد إذ كانوا بذلك أحق من اليهود و النصارى ولو لم يكن إلا كتاب (كشف الأسرار وهتك الأستار) للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب وكتاب عبد الجبار بن أحمد وكتاب أبي حامد الغزالي وكلام أبي إسحاق وكلام ابن فورك والقاضي أبي يعلى والشهرستاني وغير هذا مما يطول وصفه والمقصود هنا أن ابن سينا أخبر عن نفسه أن أهل بيته وأباه وأخاه كانوا من هؤلاء الملاحدة وأنه إنما اشتغل بالفلسفة بسبب ذلك).

إلى أن قال: (وابن سينا لما عرف شيئا ًمن دين المسلمين وكان قد تلقى ما تلقاه عن الملاحدة وعمن هو

خير منهم من المعتزلة والروافض أراد أن يجمع بين ما عرفه بعقله من هؤلاء وبين ما أخذه من سلفه) انتهى نقله من مجموع الفتاوى [9/233-235].

وقال ابن تيمية في موضع آخر [11/571]: (وابن سينا أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليونان ومما أخذه من أهل الكلام المبتدعين الجهمية ونحوهم وسلك طريق الملاحدة الإسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية ومزجه بشيء من كلام الصوفية وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيلية القرامطة الباطنية فإن أهل بيته كانوا من الإسماعيلية أتباع الحاكم الذي كان بمصر وكانوا في زمنه ودينهم دين أصحاب "رسائل إخوان الصفا" وأمثالهم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين ولا يهود ولا نصارى) ا.هـ.

وقال في موضع آخر [4/103]: (وكذلك ابن سينا وغيره، يذكر من التنقص بالصحابة ما ورثه من أبيه وشيعته القرامطة) ا.هـ.

قلت: ولولا خوف الإطالة لسردت من كلام شيخ الإسلام في تكفير ابن سينا وبيان ضلالاته أكثر من هذا.

وتبعه ووافقه في نقده وتكفيره ابن سينا أيضاً، الإمام العلامة شمس الدين ابن القيم رحمه الله في كثير من كتبه منها: "إغاثة اللهفان" و "شفاء العليل" و "الكافية الشافية" وغيرها.

فمن ذلك قوله رحمه الله: (وكان ابن سينا كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد ولا رب ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى) ا.هـ من إغاثة اللهفان [2/195].

وأطلق عليه ابن القيم لقب "إمام الملحدين" في إغاثة اللهفان [196/2] ولقب شيخ الملحدين في كتابه (شفاء العليل) وغيره.

فمن كان هذا حاله فكيف يعظمه المسلمون ويفخمون من شأنه ويحتفون به ويفخرون على الأمم بعلمه وفكره؟

فإن قيل: إنه تاب آخر حياته كما نقل ذلك ابن كثير رحمه الله وغيره فالجواب من وجوه:

الأول: أن الذين حكوا توبته لم يفصلوا، هل كانت توبته من مقالاته الكفرية وضلالاته الفلسفية الباطنية ، أم كانت من المعاصي الظاهرة كالظلم والمسكر ونحو ذلك؟

فقد جاء في لسان الميزان [292/2] قوله عن نفسه: (كنت أرجع بالليلي إلى داري فمهما غلبني النوم عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلى قوتي).

وذكر في السير [533/17] أنه لما صار وزيراً لبعض السلا طين (كانوا يشتغلون عليه فإذا فرغوا حضر المغنون وهيء مجلس الشراب) ا.هـ.

فالأقرب أنه تاب من مثل هذه المعاصي كما ورد في ترجمته في وفيات الأعيان [160/2] وغيره أنه: (اغسل وتاب وتصدق ورد المظالم على من عرفه) وذلك قبل موته بقليل ولم يحكوا عنه كلمة واحدة تبرأ فيها من مذهبه الرديء واعتقاداته الخبيثة.

الثاني: أنه لو فرض أنه تاب من كفره وضلاله فيما بينه وبين الله فإن توبته إن قبلت نفعته عند الله وفي الدار الآخرة أما نحن فليس لنا إلا الظاهر والله يتولى السرائر وحكمنا عليه إنما هو بما أظهره من كفر وزندقة في كتبه ومؤلفاته وهي باقية على ما هي عليه ولم يشتهر إلا بها لم

يشتهر بتوبته من الكفر والزندقة.

ومن كان هذا حاله فلا يصح أن يعظم أو يفخم على ا لإطلاق بل لابد من بيان الكفر الذي كان عليه والتحذير مما ورثه من ضلالات وهذا هو الذي درج عليها علماء الإسلام كابن تيمية والذهبي وابن القيم وابن كثير وغيرهم.

الثالث: أن مثل هؤلاء الزنادقة إن تابوا وصحت توبتهم فغاية أمرهم أن يلحقوا بعوام المسلمين وحسبهم أن يقال فيهم: إنهم رجعوا إلى حظيرة الإسلام وماتوا على عقيدة عجائز الإسلام لا أن يصنفوا في عداد علماء الأمة وأئمتها لأن إمامتهم إنما كانت في الضلالة وعلمهم كان في الحقيقة جهالة.

فصل

فإن قيل: ألا يحسن أن تذكر محاسنهم ويستفاد من مآثرهم في الطب والعلوم التي لم يشبها شيء من الكفر أو الضلال؟

فالجواب أن يقال: لا بأس بأخذ العلوم المذكورة عنهم كما تؤخذ من اليهود والنصارى والمجوس ونحوهم فإن هذه العلوم مشتركة بين الناس كلهم لا تخص طائفة دون طائفة أما العلوم الشرعية أو الإلهية فلا يجوز أخذها عنهم بحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه بل هذا أحسن لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بـ الخيانة بل هي مجرد انتفاع بآثارهم كالملابس والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك.

وإن ذكروا ما يتعلق بالدين فإن نقلوه عن الأنبياء

كانوا فيه كأهل الكتاب وأسوأ حالاً ...ا.هـ من مجموع الفتاوى [4/114-115].

2- ثابت بن قرة (ت288هـ).

قال الذهبي في ترجمة ثابت بن قرة: (الصابئ الشقي الحراني فيلسوف عصره) وقال: (هو أصل رئاسة الصابئة المتجددة بالعراق) ا.هـ من السير [13/485] وذكر الذهبي أنه هو وابنه وحفيده ماتوا على ضلالهم. وقال ابن كثير عنه: (الصابئ الفيلسوف الحراني وكان يدخل مع المنجمين على الخليفة وهو باق على دين الصابئة) ا.هـ باختصار من البداية والنهاية [11/85].

وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان [1/313-314]: (برع في الطب وكان الغالب عليه الفلسفة وجرى بينه وبين أهل مذهبه أشياء أنكروها عليه في المذهب فمنع من دخول الهيكل وكان صابئي النحلة) ا.هـ باختصار.

قلت: فلم ينسبه أحد للإسلام أصلاً، بل نسبوه إلى الصابئة ، وهم ملاحدة مشركون يعبدون الكواكب ويتخذون لها هياكل وأصناماً تدل عليها وترمز إليها، وعلى تلك الملة كان قوم إبراهيم الخليل عليه السلام.

ومن كان هذا حاله فلا يصح نسبته إلى عوام المسلمين، فضلاً عن علمائهم وفضلائهم.

3- الفارابي (ت339هـ).

قال الذهبي في السير [15/416]: (شيخ الفلسفة الحكيم، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، التركي الفارابي المنطقي أحد الأذكياء له تصانيف مشهورة من ابتغى الهدى منها ضل وحار، منها تخرج ابن سينا ويقال إنه أول من اخترع القانون) ا.هـ.

وقال ابن العماد في شذرات الذهب [2/353]: (أكثر العلماء

على كفره وزندقته حتى قال الإمام الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" : لا شك في كفرهما أي الفارابي وابن سينا) ونقل عن الغزالي أيضاً قوله: (مجموع ما غلط فيه هؤ لاء الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام، ومنهم الفارابي وابن سينا يرجع إلى عشرين أصلا ً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها وتبديعهم في سبعة عشر.

أما المسائل الثلاث فهي:

1- قولهم إن الأجسام لا تحشر، وإن المثاب والمعاقب هي الروح.

2- وقولهم إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات.

3- وقولهم بقدم العالم وأزليته.

وأما المسائل الأخرى التي يبدعون بها فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة. انتهى باختصار من شذرات الذهب.

4- الرازي (محمد بن زكريا) (ت311هـ).

ترجمه الذهبي في السير [354/13] فقال: (الأستاذ الفيلسوف أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب بلغ الغاية في علوم الأوائل نسأل الله العافية) ا.هـ باختصار.

قلت: ولم يزد كل من ترجمه كابن خلكان في الوفيات [157/5] وابن العماد في الشذرات [263/2] وابن النديم في الفهرست (504) على وصفه بالحذق في الطب والبراعة فيه وفي الفلسفة وهذا ما عناه الذهبي بقوله: (بلغ الغاية في علوم الأوائل).

وقال ابن القيم في معرض كلامه عن عقائد الثنوية و الديصانية وهم من المجوس (وأصل عقد مذهبهم الذي عليه خواصهم إثبات القدماء الخمسة: الباري ، والزمان، و الخلاء، والهيولي، وإبليس).

فالباري خالق الخيرات، وإبليس خالق الشرور، وكان محمد بن زكريا الرازي على هذا المذهب لكنه لم يثبت إبليس فجعل مكانه النفس وقال بقدم الخمسة مع ما وشحه به من مذاهب الصائبة والدهرية والفلاسفة و البراهمة.

فكان قد أخذ من كل دين شر ما فيه وصنف كتاباً في إبطال النبوات ورسالة في إبطال المعاد فركب مذهباً مجموعاً من زنادقة العالم) أ.هـ باختصار من إغاثة اللهفان [179/2].

5- ابن رشد الحفيد (ت 595هـ).

قال الذهبي في السير [307/21] : (العلامة فيلسوف الوقت أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يضرب به المثل في ذلك لا ينبغي أن يروى عنه) وذكر أن الخليفة يعقوب الملقب بالمنصور نقم على ابن رشد لأجل الفلسفة وأمر أن يهجر في بيته فلا يدخل عليه أحد لأنه بلغه عنه أقوال ردية ونسبت إليه العلوم المهجورة فمات محبوساً بداره بمراكش . ا.هـ باختصار.

قلت: قوله : (العلوم المهجورة) أي: علوم الفلاسفة القائلين بقدم العالم وغير ذلك من الأقوال المنكرة كما مر ذكر شيء منها من قبل وكما سيأتي تفصيله قريباً إن شاء الله.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن ابن رشد الحفيد خالف قدماء الفلاسفة في بعض مذاهبهم وأنه أقلهم كفراً وأقربهم إلى الإسلام انظر مجموع الفتاوى [357/17،295،289].

قلت: فحال هؤلاء كما رأيت ما بين زنديق منكر للمعاد كابن سينا والفارابي والرازي أو كافر مشرك عابد للأفلاك وا لأصنام كثابت بن قرة الصابئ وأحسنهم حالا ً من هو شر

من الجهمية والمعتزلة كابن رشد الحفيد.

فهل يليق بمسلم بعد ذلك تعظيمهم وتفخيم شأنهم وا لإشادة بهم وبعلومهم؟

حقيقة مذهب *الفلاسفة*

كل من ترجم لهؤلاء الضلا ّل، ابن سينا والرازي و الفارابي وأضرابهم، نسبوهم إلى الفلسفة، وهي الحكمة اليونانية.

وأصل الكلمة: فيلا سوفا فهي مكونة من شقين الأول: فيلا ومعناه: محب والثاني: سوفا ، ومعناه: الحكمة ، ف الفيلسوف هو : محب الحكمة[1].

وحقيقة مذهبهم أنهم يقسمون العلم إلى ثلاثة أقسام: العلم الإلهي ، والعلم الطبيعي والعلم الرياضي.

فأما العلم الإلهي فقد تخبط فيه قدماؤهم، وأشهرهم أرسطو وهو معلمهم الأول وتبعه على ذلك الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام مثل: الفارابي وابن سينا والرازي وغيرهم فوصفوا الإله بما لا ينبغي وصفه به وعطلوه عن أسمائه وصفاته ولم يثبتوا له وجوداً حقيقياً بل أثبتوا له وجوداً مطلقاً وهو عند التحقيق والنظر يقتضي نفي وجوده على الحقيقة.

وقد نفى ابن سينا في كتابه "الإشارات" عن الله تعالى القدرة والإرادة والحكمة والاختيار بل نفى عنه العلم أيضاً فقال: إن الله لا يعلم إلا ذاته وأنه إنما يعلم الأشياء على وجه كلي وأنكر علمه بتفاصيل الأشياء تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

قال الله تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا

(1) "الملل والنحل" للشهرستاني [58/2].

حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} [الأنعام/59].

وقال: {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} [يونس/61].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقال ابن سينا أيضاً: (إن العالم إنما صدر عن الله بطريق الإيجاب لا بطريق الاختيار والمشيئة وأن الله علة للعالم فقط) فنفى خلقه تعالى للعالم وإيجاده إياه من عدم وقال: (إن العالم قديم) بمعنى أنه أزلي، فوجوده مقارن لوجود الخالق سبحانه وتعالى عما يشركون.

والقرآن ينقض هذا المذهب الباطل قال تعالى: {وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة} [القصص/68].

وقال: {الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل} [الزمر/62] والآيات في تقرير خلق الله للأكوان والعالمين تجل عن الحصر.

والوحي في مذهب ابن سينا وإخوانه الفلاسفة عبارة عن فيض يفيض من العقل الفعال وهو العقل العاشر عندهم ويسمونه عقل القمر.

ويقولون: إن نفس النبي صلى الله عليه وسلم لشدة صفائها تكون كالمرآة المجلوة، فتنعكس المعاني من العقل الفعال عليها وتنطبع فيها ثم إن القوة المتخيلة للنبي تتلقى هذه المعاني المجردة فتجسمها في حروف وألفاظ.

قالوا: ولما كان خيال النبي محمد صلى الله عليه وسلم في غاية القوة فإنه كان يخيل إليه أنه يرى شخصاً خارجاً ويسمع كلاماً وإنما هو في الحقيقة صوت ينبعث من داخل نفسه.

قالوا: فالقرآن إنما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فيضاً من العقل الفعال معاني مجردة عن الألفاظ فألبسها هو ألفاظاً من تأليفه والقرآن ليس إلا مواعظ وخطب فهو يصلح للسذج والعوام لإقناعهم والتأثير عليهم ومن ثم فقد اضطر النبي إلى استعمال الخيال والأ مثال لتقريب المعنى للعوام فحدثهم أن الله سميع بصير وأنه يريد ويتكلم وين-زل ويجيء ويأتي وغير ذلك من الصفات والأفعال فقط من أجل تقريب المعنى لا غير.

وأنبأهم كذلك عن الدار الآخرة ونعيم الجنة وحورها وطعامها ولذاتها، وعن النار وعذابها وزقومها وسلاسلها، وكل ذلك لا حقيقة له، بل هو ضرب من الأمثال والخيال، لأ ن العوام والبسطاء لا يفهمون إلا بهذه الطريقة.

قالوا: وأما الخاصة والأذكياء (ويعنون أنفسهم وأضرابهم من الفلاسفة ومن يسمونهم الحكماء) فإنهم يفهمون المعاني مجردة عن هذه التخيلات، فلا حاجة لهم إليها[1].

قلت: فهذا هو قدر الأنبياء عند الفلاسفة، وهذا هو اعتقادهم فيهم وفي الوحي الذي جاءوا به، وهو يقتضي إنكار نبوتهم أصلا ً، وإنكار أن الله أنزل كتباً بواسطة الملا ئكة، ويقتضي التكذيب بالقرآن وكونه من-زلا ً من عند الله وفيه اتهام صريح للأنبياء كلهم بالكذب على الله و على الخلق حاشاهم من ذلك. ويقتضي أيضاً إنكار اليوم الآخر و الجنة والنار ثم هم من غلاة القدرية المكذبين بالقدر فكفروا إذاً بكل أركان الإيمان الستة.

ولا ريب أن من كان هذا اعتقاده في الله وكتبه ورسله فهو من الملاحدة الكفار ألد أعداء الإسلام ومثله يجب

---

(1) انظر إغاثة اللهفان لابن القيم [2/190-192] وشرح النونية للهراس [1/136-139].

البراءة منه وإعلان ذلك على الملأ وتحذيرهم من تعظيمه و الإشادة به وبعلومه ولو فرض أنه من أعلم الناس بالطب و العلوم الدنيوية.

قال الله تعالى: {لا تجد قوماً يؤمنون ب الله واليوم الآ خر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإ يمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها ا لأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون} [المجادلة/22].

قال القرطبي في تفسيره [308/17]: (استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان.

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت في من كان يصحب السلطان) ا.هـ باختصار.

منهج السلف البراءة من أهل البدع

فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما قال له يحيى بن يعمر: (إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم،... وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف) قال ابن عمر رضي الله عنهما: (فإن لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر) ثم ذكر حديث جبريل المشهور.

قلت: فتبرأ ابن عمر من منكري القدر مع ما قيل فيهم من حرصهم على طلب العلم وقراءة القرآن، فكيف ب الله لو رأى ابن عمر أو سمع من ينكر أركان الإيمان بالكلية وينفي عن الله تعالى علمه وإرادته وكلامه وينكر وحيه ورسالته؟

ولما أظهر بشر المريسي مقالته في تعطيل صفات الله والقول بخلق القرآن وإنكار القدر قام عليه علماء السلف وبدعوه وكفروه وأمروا بهجره ومجانبته وصنفوا الكتب في الرد عليه ومنهم الأئمة: أبو يوسف، والشافعي و الدارمي وغيرهم.

ولما أعلن الجعد بن درهم مذهبه الخبيث في إنكار صفات الله وقال بخلق القرآن ضحى به الأمير خالد القسري أمام الملأ بعد أن صلى صلاة الأضحى وخطب في الناس وقال في خطبته: (أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ً ولم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً) ثم نزل فذبحه.

والأمثلة والوقائع في بيان مذهب السلف وموقفهم من المخالفين من أهل البدع أكثر من أن تحصر.

وإذا كان هذا موقفهم ممن أنكر أو خالف في أصل من أصول الدين كالقدر أو الصفات فكيف ترى يكون موقفهم ممن أنكر أصول الدين وأركان الإيمان كلها كهؤلاء الفلاسفة المارقين؟

وإذا تقرر أن مذهب السلف الذي أجمعوا عليه في القرون المفضلة هو البراءة من المبتدعة خاصة من كانت بدعته مكفرة فلا يحل لأحد من الناس مخالفة ذلك فيعظم من شأن أعداء الدين من أهل الفرق الضالة والملل المنحرفة، وقد قال الله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً} [النساء/115].

وقال سبحانه: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن

يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا ً مبيناً} [الأحزاب/36].

سلمان رشدي ونسرين

ويقال لهؤلاء المعظمين للملاحدة المحتفين بهم وبعلومهم أترضون أن يعظم سلمان رشدي ونسرين اللذان كفرا ب الله وسخرا من الإسلام ومن الرسول عليه الصلاة و السلام؟

ولا ريب أن المسلمين متفقون على تكفيرهما و البراءة منهما، ومن على شاكلتهما، وتكفير من توقف في كفرهما أيضاً، أو اعتذر عنهما فكيف بمن يعظم شأنهما ويفخم أمرهما؟

ولئن كان ذانك الكافران رشدي ونسرين قد تنقّصا من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وجحدا بعض أحكام الإسلام فإن هؤلاء الفلاسفة قد كفروا ب الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالكذب على الله وعلى الناس، بل أنكروا نبوته أصلا ً.

سبب التفريق بين الفريقين

والذي يظهر لي أن سبب تفريق الناس بين هؤلاء الزنادقة الفلاسفة، وأولئك الكفرة الفجرة (نسرين ورشدي ومن على شاكلتهما) يرجع إلى أمرين.

الأول: جهل كثير من المسلمين بكثير من أحكام هذا الدين العظيم وأصوله فالكفر عندهم لا يقع إلا بالتصريح بسب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلا م. أما من يضع لهم ذلك الكفر وأضعافه في قالب الفلسفة ويزينه ببهرج المنطق ويتستر بشيء من العلم أو الزهد أو التصوف فهو في عداد المؤمنين بل ربما ألحق بالعلماء العارفين وشيوخ الإسلام العابدين!

الأمر الثاني: انبهار كثير من المسلمين بما وصلت إليه الأمم الكافرة من تقدم في العلوم الدنيوية وما فتح الله عليهم من أبواب كل شيء فأخذوا يبحثون عن شيء يفاخرون به الكفار ويدفعون عن أنفسهم وصمة الجهل و التخلف في علوم الدنيا فوجدوا ضالتهم في أولئك الفلا سفة الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام كابن سينا وإخوانه خاصة وهم يرون تقديس علماء الغرب لهم وتعظيمهم لعلومهم وإفادتهم من كتبهم ومؤلفاتهم التي لا تزال حتى ا لآن من المراجع الرئيسة في الطب والفيزياء والفلك و الرياضيات ونحوها من العلوم.

ونسي هؤلاء المنبهرون المخدوعون أو جهلوا تلك الدرجة الرفيعة السامية التي وصل إليها المسلمون الأوائل في علوم القرآن والحديث والتفسير والفقه واللغة و التاريخ وغيرها وهي العلوم التي امتاز بها المسلمون على سائر الأمم.

نسي هؤلاء، أو تناسوا، جهابذة العلم وحفاظ الإسلام، كالصحابة الكرام وتابعيهم والأئمة المشهورين من بعدهم م الك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق والبخاري ومسلم ومن جاء بعدهم كابن تيمية وابن القيم و الذهبي والمزي وابن كثير ونحوهم.

فهؤلاء وأمثالهم هم مفخرة المسلمين وعلومهم هي أشرف العلوم وأزكاها وأنفعها في الدنيا والآخرة ولو فرض أن المسلمين لم ينبغوا في علم من العلوم التجريبية التي يقدسها الغرب ويعظمها كثير من أبناء المسلمين اليوم فلا غضاضة عليهم في ذلك ولا ينقص ذلك من قدرهم شيئاً فحسبهم ما عندهم من علوم ربانية وحكمة نبوية ورثوها عن إمام العلماء وسيد الحكماء صلى الله عليه وسلم.

أشرف العلوم وأنفعها في الدنيا والآخرة

وقد ساءني إصرار الدكتور وليد الفتيحي هداه الله في مقاله اللاحق رقم (5) الذي أكد فيه ما كان ذكره من قبل في مقالاته السابقة من تمجيد وتعظيم لتلك الفئة الضالة المنحرفة من الفلاسفة الملاحدة وزاد فيه قوله: (نكمل معكم اليوم رحلتنا مع العلم والإيمان بين كل من الشرق و الغرب التي اقتفينا خلالها آثار صورة العالم المسلم عقلاً وروحاً عبر مئات السنين بانتقاء سيرة بعض عمالقة العلم في التاريخ الإسلامي من أمثال ثابت بن قرة وعبد الرحمن بن أحمد بن يونس والبيروني والرازي والخازن وابن النفيس وابن الهيثم وما هؤلاء إلا أسماء قليلة من مئات العلماء المسلمين الذين مارسوا أسمى صور العبادة لخالقهم عندما فهموا نصوص القرآن والسنة التي تدعو للعلم والتفكر والبحث والنظر والتي ترفع من قدر العلم ومكانة العالم فتضعه فوق العابد...) الخ.

قلت: وقد اشتمل هذا الكلام على جملة من الأخطاء و المغالطات التي وددت لو أن الدكتور لم يقع فيها:

1- فمن ذلك قوله عن أولئك المنحرفين الضالين إنهم: (عمالقة العلم في التاريخ الإسلامي) هذا إطراء لا يستحقه أمثال هؤلاء، فقد علمت قولهم في الله تعالى وإنكارهم لحقيقة وجوده وجحدهم لصفاته وكلامه واعتقادهم السيئ في الملائكة والرسل واليوم الآخر.

2- ومن ذلك قوله في وصف أولئك الضالين إنهم: (مارسوا أسمى صور العبادة لخالقهم) وهذا جهل عظيم وزلة كبيرة من الدكتور، إذ إن أسمى صور العبادة أي أعلاها لم يبلغها إلا الأنبياء عليهم السلام وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الصحابة من بعدهم وتابعوهم

بإحسان.

أما أولئك المنحرفون فإن حسبهم إن عذروا في أخطائهم وبلاياهم أن يلحقوا بعوام المسلمين لا أن يكونوا في مصاف علمائهم وعبادهم.

3- ومن ذلك وصفه لهم بأنهم: (فهموا نصوص القرآن و السنة التي تدعو للعلم والتفكر والبحث والنظر والتي ترفع من قدر العلم ومكانة العالم فتضعه فوق العابد) وهذا جهل آخر أيضاً بمعنى العلم ومدلوله في القرآن والسنة فإن العلم المندوب إليه في نصوصها هو العلم بالله وبأمره وشرعه وهذا مطرد في كل النصوص.

قال تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} [المجادلة/11].

وقال: {والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا} [آل عمران/7].

وقال: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك} [النساء/162].

وقال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط} [آل عمران/18].

وقال: {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير} [القصص/80].

وقال: {بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم} [العنكبوت/49].

وقال: {وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث} [الروم/56].

وقال: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق} [سبأ/6].

وقد تضمنت الآيات السابقة نفي العلم عن أولئك الفلا

اسفة الضالين فإنهم لم يؤمنوا بما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يشهدوا شهادة الحق على وجهها، وقد قدمنا لك حقيقة مذهبهم الفاسد في وجود الله وصفاته ، وفي أركان الإيمان وأصوله.

وقد وصف الله تعالى رسله عليهم السلام بالعلم و الحكمة وامتن عليهم بها فقال عن يوسف:{ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلما} [يوسف/22].

وقال: {ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً} [الأنبياء/74]. وقال: {ولقد آتينا داود وسليمان علماً} [النمل/15].

ووصف الحق سبحانه كتابه ووحيه بالعلم فقال: {ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير} [البقرة/120].

ولا ريب أن العلم الذي آتاه الله رسله وميزهم به عن سائر خلقه هو العلم الديني الشرعي إذ الرسل إنما بعثت لتبليغ الناس وتعليمهم هذا العلم أما العلوم الأخرى فإنها تستفاد بالتجربة والنظر ويشترك فيها سائر الناس مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم كما يشتركون في سائر الأمور الدنيوية المباحة كالصناعة والتجارة والزراعة ونحوها.

وقد دلت السنة على ما دل عليه القرآن، من أن العلم إذا أطلق في مقام المدح والترغيب فالمقصود به علم الشريعة ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً) الحديث[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العلماء وإنما يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا

(1) متفق عليه [اللؤلؤ والمرجان 92/3].

فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[1].

فالعلم هنا المقصود به علم الدين المستقى من الوحي المن-زل، لا العلوم الدنيوية.

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) هو من هذا الباب وللحديث قصة سيق من أجلها تدل على المطلوب وهي أن رجلا ً أتى أبا الدرداء رضي الله عنه وهو في مسجد دمشق فقال يا أبا الدرداء: إني جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث بلغني أنك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (ما كانت لك حاجة غيره؟ قال: لا. قال: ولا جئت لتجارة؟ قال: لا . قال: ولا جئت إلا فيه؟ قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة) وساق بقية الحديث، وذكر فيه فضل العالم على العابد وقال في آخره: (وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأ نبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[2].

فآخر الحديث يفسر أوله، لأن الأنبياء لم يورثوا علم الفلك والطب والفيزياء ، وإنما ورثوا العلم الشرعي الذي به يعرف الله ويعبد وبه تحيا القلوب وتزكو النفوس، وتصلح أمور الدنيا والآخرة.

وقد فهم أبو الدرداء رضي الله عنه وهو راوي الحديث أن العلم المذكور فيه هو علم الشريعة ولهذا سأل الرجل: هل جئت لحاجة من حاجات الدنيا؟ فلما أخبره أنه

---

(1) متفق عليه [اللؤلؤ والمرجان 218/3].
(2) رواه أبو داود (ح3641) والترمذي (ح2684).

إنما جاء ليسأله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق الحديث المذكور.

قلت: ولا أعلم خلافاً بين العلماء من السلف والخلف في أن العلم المأمور به والمندوب إليه في نصوص الشرع هو العلم الشرعي المستقى من الوحيين: الكتاب والسنة.

وحال الأئمة والعلماء وفعلهم يؤكد ذلك فقد أفنوا أعمارهم وشغلوا أوقاتهم بطلب العلم الشرعي وجمعه و التفقه فيه والرحلة إليه ثم العمل بمقتضاه.

نعم كانت لهم علوم أخرى دنيوية في الصناعة و التجارة والزراعة وغيرها مما يحتاجه الناس في معاشهم وبرع بعضهم في علوم الفلك والطب والحساب لكنهم لم يساووها بعلوم الدين والشرع ولم يفنوا فيها الأعمار والأ وقات ولم يشتهروا بها كما اشتهروا بتلك.

وهاهنا شبهة قد يثيرها بعض المفتونين بهؤلاء الفلا سفة فيقولون: إن العلوم التي برعوا فيها انتفع بها سائر الخلق بخلاف علوم الشرع التي اقتصر نفعها على المسلمين فقط.

والجواب عن ذلك أن يقال: إن النفع الحاصل للناس من علوم الطب والفلك والطبيعة ونحوها لا يتعدى هذه الحياة الدنيا بخلاف علوم الشرع التي عم نفعها في الدارين: الدنيا والآخرة.

ولا نسلم أن العلم الشرعي اقتصر نفعه على المسلمين فقط، فإن الوحي الإلهي فيه صلاح أمور العباد كلهم في سائر شؤون حياتهم ومعاشهم على مر الدهور واختلاف العصور.

قال الله تعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد}

[إبراهيم/1].
وقال: {من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} [النحل/97].
وقال: {فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى} [طه/123-124].
وقال: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض} [الأعراف/96].
فالعلوم الربانية فيها حياة القلوب والأرواح وشفاؤها وهدايتها واستقامتها بخلاف غيرها من العلوم التي يظن أنها توصل إلى معرفة الله وعبادته وغاية ما فيها الدلالة على وجوده وقدرته وهذا وحده لا يكفي للنجاة قال الله تعالى: {أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها} [الأنعام/122].
وقال: {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى/52].
فسمى الله تعالى وحيه المنـزل روحاً لأن به حياة الأرواح وسماه نوراً لأنه نور البصائر والقلوب.
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار حراء قبل نزول الوحي عليه ولم يكن قد دخل في شيء من أمور الجاهلية حاشاه فقد صنعه الله على عينه وجبله على خلق عظيم.
ومع ذلك فإن حاله بعد الوحي والعلم الإلهي مباينة

لما كان عليه من قبل كما دل عليه قوله تعالى:{ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان}.

ثم نقول: لو كانت العلوم الدنيوية نافعة وحدها في هداية الناس لانتفع بها هؤلاء الزنادقة وحالهم كما رأيت كفر بالله وجهل بدينه وتكذيب بكتبه ورسوله.

ثم هل يصح أن يسوى بين علم أنزله الله عز وجل على رسله وأمرهم بتبليغه وجعله نوراً للناس وبين علوم أرسطاطاليس وبطليموس وجالينوس وسقراط ونحوهم من ملاحدة الإغريق وفلاسفة اليونان؟

حكم تعلم العلوم الشرعية

طلب العلم الشرعي منه ما هو فرض عين على المكلفين وهو علم توحيد الله سبحانه ومعرفته وما يتبع ذلك من مسائل الاعتقاد المجملة كالإيمان بالملائكة و الكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره فإنه لا يصح إيمان إلا بعلم.

وكذا علم فرائض الإسلام كالصلاة والصيام الزكاة و الحج وغيرها من العبادات والمعاملات يجب على المكلفين بها تعلم أحكامها.

وأما تعلم ما سوى ذلك من تفصيلات مسائل الإيمان وشرائع الإسلام الأخرى فمنها ما هو فرض على الكفاية ومنها ما يعد من النوافل والمستحبات.

حكم تعلم العلوم الدنيوية

أما تعلم العلوم الأخرى، كالرياضيات والفيزياء و الطب والفلك والهندسة ونحوها من العلوم الدنيوية فالأصل فيه الإباحة وقد يكون مطلوباً حسب حاجة المسلمين إليه في معاشهم وقد يصل إلى الواجبات إذا كان من وسائل جهاد الكفار ومما يدافع به المسلمون عن أنفسهم

وأعراضهم وديارهم وأموالهم.
أما الظن بأن كل ما وصل إليه الكفار من علوم فإن على المسلمين تعلمه والبراعة فيه فهذا ظن خاطئ إذ الواجب على المرء أن يجعل الآخرة همه لا الدنيا ومتاعها وعلومها.
ولا فرق بين أن تذهب الأعمار وتهدر الأوقات في طلب المال والتجارات وبين هدرها في تتبع دقائق العلوم الدنيوية والحذق فيها.
ومعلوم أن الكفار لا هم لهم إلا الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها وقد صرفوا كل أوقاتهم وأيامهم من أجل عمارتها وتحسين معيشتهم فيها فكان حرياً إذاً أن يبرعوا في كل شأن من شئونها ويبرزوا في كل علم من علومها.
وليس هذا خاصاً بالكفار في هذه العصور المتأخرة كما قد يظن ذلك بعض المفتونين بالمدنية المعاصرة بل لم يزل ذلك ديدن الأمم الكافرة عبر القرون.
ألم يكن في قوم إبراهيم وقوم عاد وثمود وأصحاب مدين وسبأ وغيرهم من الأمم الغابرة حضارات دنيوية وعلوم متقدمة سبقوا فيها غيرهم ممن عاصرهم من الأمم بل فاقوا بها بعض من جاء بعدهم كالعرب الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم.
فماذا أغنت عنهم علومهم وحضاراتهم؟
قال الله تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين} [الأعراف/74].
وقال: {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية} [سبأ/15].
وقال: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان

عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات} [الروم/9].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد أثبت الله تعالى للأولين علوماً لكنها لم تنفعهم ولم تغن عنهم شيئاً لما أعرضوا عن علم الوحي والعمل به.

قال الله تعالى: {فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} [غافر/83-85].

فأثبت لهم الله عز وجل علماً لكنه لم ينفعهم حين كفروا بالله وكذبوا الرسول.

وقال تعالى: {وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} [الروم/6-7].

فنفى عنهم العلم النافع المتلقى من الوحي الصادق وأثبت لهم العلم الدنيوي.

قال القرطبي في تفسيره [7/14]: {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا} يعني: أمر معاشهم ودنياهم متى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يغرسون وكيف يبنون.

قال الحسن: بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي.

وقال ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. {وهم عن الآخرة} أي عن العلم بها والعمل لها {هم غافلون} انتهى باختصار.

قلت: والمقصود أن هذه المدنية الغربية التي فتنت

بزخرفها وبهرجها كثيراً من أبناء المسلمين خاصة المشتغلين بالعلوم الدنيوية لا ينبغي أن تصبح غاية يتطلع إليها المسلمون ويتسابقون في تحصيلها والتنافس فيها بل حسبهم أن يأخذوا منها ومن علومها قدر حاجتهم وكفايتهم من غير إفراط ولا تفريط فإن الحياة الدنيا دار ممر لا دار مقر والمقصود العمل للآخرة ولا يستقيم العمل لها إلا بالعلم الشرعي الموروث من أعلم الخلق وأكثرهم عبادة وتضرعاً وخشية وتقوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو القائل: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)(1).

والقائل: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)(2).

فلم يكن صلى الله عليه وسلم ، ولا أمته أعلم الخلق بأمر الدنيا ولم يرغب أمته فيها وفي علومها وإنما رغبهم في العلم الشرعي فقال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(3).

وقال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)(4).

وقال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)(5).

وقال: (نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه)(6).

ودعا لابن عباس رضي الله عنهما فقال: (اللهم علمه الكتاب)(7).

والأحاديث في الترغيب في طلب العلم الشرعي

---

(1) رواه مسلم [2363]..
(2) متفق عليه [اللؤلؤ والمرجان ح655].
(3) رواه البخاري [66/9].
(4) رواه مسلم [817].
(5) رواه الشيخان [جامع الأصول3/8].
(6) رواه أبو داود والترمذي [جامع الأصول 17/8].
(7) رواه الشيخان [جامع الأصول 63/9].

وتعلمه وتعليمه أكثر من أن تحصر.

واعتبر بحال أولئك الفلاسفة الذين عظم الدكتور من شأنهم وفخم من أمرهم هل نفعتهم علومهم التي أفنوا أعمارهم فيها وأهدروا أوقاتهم في تحصيلها؟

كلا، بل قادتهم إلى الكفر والتعطيل والزندقة هذا من حيث الاعتقاد والعلم.

أما العبادة فأحسنهم حالاً من كان يعبد الكواكب ويتردد إلى الهيكل لعبادة الأصنام والعكوف عليها كما مر في ترجمة الصابئ: ثابت بن قرة.

وحسبك ما جاء في ترجمة شيخهم وإمامهم الطبي العبقري: ابن سينا مما تقدم ذكره أنه كان يسهر فإذا غلبه النوم شرب قدحاً من شراب[1].

وأنهم كانوا إبان وزارته إذا فرغوا من القراءة عليه (حضر المغنون وهيء مجلس الشراب)[2].

وقال خادمه إنه كان: (يسرف في الجماع فأثر في مزاجه)[3].

واستمر على إسرافه في الجماع حتى قبل موته حين أصابه القولنج مما أضعف قوته وزاد علته[4].

فأي عبادة تلك التي يزعم الكاتب أنهم بلغوا أسمى درجاتها وأعلى منازلها؟!

حال السلف في العلم والعبادة

بل الذي بلغ أسمى الدرجات وأعلى المنازل في كل فضيلة وخلق ودين بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم أئمة السلف وعلماؤهم.

---

(1) لسان الميزان [292/2].
(2) سير أعلام النبلاء [533/17].
(3) سير أعلام النبلاء [534/17].
(4) سير أعلام النبلاء [534/17].

أما العلوم الشرعية فهم أساطينها لا ينازعهم فيها منازع ومن قرأ سيرة الإمام أحمد والبخاري ومسلم وابن معين وابن المديني وأضرابهم وسيرة ابن تيمية وابن القيم والذهبي ونحوهم رأى العجب العجاب.

وأما العبادة فحسبك مثالا ً على ذلك ما جاء في ترجمة الإمام حماد بن سلمة في تهذيب التهذيب [13/3] : قال ابن مهدي: لو قيل لحماد بن سلمة إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً).

وجاء مثله في التهذيب [210/9] : (كان بالكوفة ثلاثة لو قيل لأحدهم إنك تموت غداً ما كان يقدر أن يزيد في عمله. محمد بن سوقة وعمرو بن قيس الملائي وأبو حيان التميمي).

وذكر في ترجمة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في السير [370/3] أنه كان لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة وأنه كان صواماً قواماً.

وجاء في الحلية [144/7] في ترجمة شعبة بن الحجاج : (قال البكراوي: ما رأيت أعبد لله من شعبة لقد عبد الله حتى جف جلده على عظمه ليس بينهما لحم).

قلت: ولولا خوف الإطالة لسردت من أحوالهم وعلومهم وعبادتهم وأخلاقهم أكثر مما ذكرت وأعجب مما سطرت وكتب السير والتاريخ والتراجم تزخر بالعجائب من ذلك.

الخاتمة

وبعد فقد بقيت مسائل وشبهات متعلقة بالموضوع لعلها تفرد في جزء لاحق إن شاء الله تعالى ولعل فيما سطرته هنا كفاية في التنبيه على خطأ تعظيم المسلمين لأعداء الله من الزنادقة والملاحدة البارعين في العلوم الدنيوية وتصحيح المفهوم تجاه تلك العلوم وأنها لا تقارن بالعلم الشرعي المتلقى من الوحي فضلا ً عن تفضيلها عليه.

وأسأل الله عز وجل بأسمائه وصفاته أن يرزقنا جميعاً العلم النافع والعمل الصالح الذي فيه نجاتنا وفلاحنا في الدارين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب المهندس
سمير بن خليل المالكي الحسني.
ت: 055521637-5350293